هول حريق « عمورية » ، فيتوقف عند مقتل برنس أنطاكية ، بما يكفى لتصوير انفعاله إزاء ما يراه من مهانته ، وعندئذ تزداد الصورة لديه خصوصية وعمقا يكشفها قوله :

فـــملْكُوا سَلَبَ الإبرنس قـــاتلُه ... وهل له غـيـــر «أنطاكـيـة» سَلَبُ
عِجبْتُ للصَّعْدَة السَّمْراء مُشمرةً ... برأســـه إنَّ إثمـــارَ القنا عَـــجَبُ
إذا القناة ابتـغت فى رأسـه نفـقـاً ... بدا لثـعلبـهـا من نحـره سَـرِبُ

وإن كان التميز هنا يظل حقا للشاعر ، وحُقَّ له ألا يُنَازَع فيه خاصة حين أضاف إلى لوحته صورة ناطقة من أحداث التاريخ ، وما تمخضت عنه الأيام من جوانب سجِّل بها آمال المسلمين ، وقد عقدت بهذا القائد لإنقاذ المسجد الأقصى من دنس الصليبيين :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب ... يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وآذَنْ لموجك فى تطهـيـر سـاحله ... فـــإنما أنت بحْـــر لُجُّـــه لَجِبُ

إذ تكاد تبرز أوجه التشابه على المستوي اللفظى لدى ابن القيسرانى مع ما التقطه من معجم « عـمـورية » فى حديثـه عن الكتب ، والشـعـر ، والخطب ، والشـهب ، والحـقب ، واضطراب الأحشاء ، والوجوب ، والارتجاف ، وضرب الكبش ، وغضبة القائد لدينه ، وطهارة السيف ، وجنابته ، والاحتساب والاكـتـساب ، والدم السرب ، والسلب ... وإن ظل الموقف ينأى به عن مـعالجة هذا المعجم على نفس العمق التـصويرى الذي صنعه أبو تمام ، وهنا تظل السمات الفارقة شديدة الوضوح بين الشاعرَيْن ، بما يحكيها من ذلك الكم من الألفاظ من ناحية ، ثم طبيعة البعد الانفعالى الصادق لدي كل منهما إزاء الحدث الجلل من ناحية أخرى .

ويبقى لنا أن نتأمل قوله على هذا المستوي من الصنعة المتأنية التى يتقمص فيها الشخصية الفنية لأبى تمام :

غـضبت للدين حتى لم يَفُتْكَ رضىً ... وكـان دينُ الهـدى مرضـاته الغَـضَبُ
طهَّـرْتَ أرضَ الأعـادى من دمـائهم ... طهـــارةً كلُّ ســـيف عندها جُنُبُ
حتَّى استطار شرَارُ الزند قـادحـه ... فـالحـرب تضـرم والآجـالُ تحـتطب
والخـيل من تحت قـتـلاها تقـر لهـا ... قـــوائم خـــانهن الرُّكْضُ والخَـبَبُ
والنقع فوق صقـال البيض منعـقد ... كـمـا اسـتـقَلَّ دُخَـانٌ تحـتَـهُ لَهَبُ